



المؤدى الفني للشعر الإسلامي بين الواقع والخيال

كتب د. نبيل قصاب باشي في العدد (٧٧) من مجلة الأدب الإسلامي مقالا مستفيضا تحت عنوان (المؤدى الفني في الشعر الإسلامي بين التنظير والتطبيق)، تناول في الجانب التنظيري منه رؤية الأستاذ محمد قطب للشعر الإسلامي في كتابه الشهير منهج الفن الإسلامي.

ونعى د. نبيل قصاب باشي في مجمل كلامه ونقولاته من هذا الكتاب على شعراء الأدب الإسلامي حظهم في عدم تمثيلهم المنهج الذي رسمه محمد قطب لهم في إبداع شعرهم الإسلامي، وأنهم لم يستطيعوا التخلص من الانزلاق في هوة التقريرية والتكرير والمباشرة.



شمس الدين درمش

وقال فيما يشبه تلخيص الرأي في هذا الموضوع: (إن نواتج منهجية محمد قطب الفنية في محصول طائفة من النتاج الشعري الإسلامي مازالت خاوية لم تقدم حتى اليوم حصيلة تجاربها التي ربت على نصف قرن، وليست العلة في المنهجية، وإنما العلة في التقصير أو العجز أو التخلف عن استيعابها وتمثلها، وهذه إشارة إلى

خواء ثقافة بعض المبدعين الإسلاميين الفنية وتقاطعهم مع أدبيات مناهجهم الفني الذي بسطه محمد قطب في كتابه.

أتجاوز نقولات د. نبيل من كتاب منهج الفن الإسلامي في رسم الخطوط العريضة للفن الإسلامي عامة، إذ يعد الشعر أحد المجالات المهمة لهذا الفن، ويحتاج لقدرات ومواهب خاصة لدى الشاعر حتى يصل إلى إبداع يشار إليه بالبنان، ويقارب رضا صاحب المنهج، وصاحب المقال الذي رسم الصورة المثالية للإبداع الفني في منهجه الفني، يتوزع المبدعون في الطريق إلى قمته بدءاً من نقطة الصفر في محاولاتهم الأولى، وانتهاء بالقمة التي لن تتسع إلا لقلة من المبدعين في الزمان والمكان والظروف الواحدة.

وجلياً أن د. نبيل انتبه لهذا فاحتاط لنفسه بكلمة (كثير) مثل قوله: (وإن كثيراً من شعراء الأدب الإسلامي لم يفقهوا آلية هذه العدسة التي تفيض أطيافها بشتى ألوان الجمال وظلالها الممتدة...)، وقوله: (إن تقوقع كثير من شعراء الأدب الإسلامي في بوتقة الوعظ المباشر يجلب عن النفس موحياتها...)، وهذا مثل ما أشرت إليه من استعماله كلمة (بعض). وهذا الأسلوب غير التعميمي في حديثه له فائدتان:

الأولى تعود عليه هو في إكساب تقييمه وحكمه النقدي المصادقية، فلا

أحد يفترض على وجود ضعف الأداء الفني لدى بعض المبدعين في الأدب الإسلامي، أو وجود بعض من الضعف الفني لدى بعض من المبدعين في الأدب الإسلامي.

والثانية تعود على الأدب الإسلامي عامة، والشعر الإسلامي موضوع المقال خاصة، فهو قد أعطى حكمه غير المباشر بوجود بعض المبدعين في الأدب الإسلامي، أو وجود كثير من



الأدب الإسلامي - ومنه الشعر - قد حقق متطلبات الأداء الفني، أو المنهج الذي رسمه محمد قطب في كتابه منهج الفن الإسلامي، والذي جعله د. نبيل ميزاناً أو مقياساً للنجاح والإخفاق الفني لمبدعي الأدب الإسلامي.

أعود إلى المقال فأقول: لقد انتهى د. نبيل إلى صياغة السؤال الآتي: (هل يمثل شعراء الأدب الإسلامي لثقافة هذا المنهج الذي طرحه محمد قطب

منذ نصف قرن؟ وهل استطاع مؤداه الفني إثراء الأدب الإسلامي وبلورة نظريته النقدية؟)

ويجيب عن السؤال قائلاً: (أزعم أن فريقاً كبيراً من شعراء الأدب الإسلامي لم يتمثلوا هذا المنهج خير التمثيل والتطبيق، ولم يستطعوا هضمه واستيعابه وامتلاك أدواته الفنية وإدراك أبعاده الجمالية، بل نراهم شذر مذر في مؤداهم الفني. ولا ضير أن يكون شعراء اتجاه عريض من اتجاهات الأدب مختلفي المنازع والأهواء في اختيار المؤدى الفني لطرائق أساليبهم الأدبية، لكن العجز والقصور عن تحقيق أدنى معايير الجمال في هذا المؤدى أمر يحتاج إلى بيان واستقصاء).

وفي هذا الزعم ينبغي الوقوف عند عبارة (لم يتمثلوا خير التمثيل والتطبيق)، ففيه أن فريقاً صغيراً تمثلوا هذا المنهج واستطاعوا استيعابه وامتلاك أدواته الفنية وأبعاده الجمالية.. وهذا أمر إيجابي يسجل لصالح الأدب الإسلامي. ولكن هل يمكن أن يحقق كل شعراء الأدب الإسلامي هذا المنهج؟ وهل يجوز أن يحمل شعراء اتجاه عريض مختلفي المنازع والأهواء... - وأضيف أنهم مختلفو البيئات والثقافات أيضاً - هل يجوز أن يحملوا على هذا المنهج المثالي الذي رسمه محمد قطب



في كتابه؛ ليمثلوه خير التمثل أو التمثيل والتطبيق؟ أو نسقطهم جملة وتقصيلاً؟ هل يجوز هذا؟ أو هل هذا ممكن في عالم الواقع الأدبي العام أصلاً، بله الأدب الإسلامي. هل حصل في عصر من العصور الأدبية أن جيلاً بكامله تمثل منهجاً أو مفهوماً من دون أن يخرموه؟ أسئلة كثيرة تطرح نفسها في مواجهة مثل هذه المطالبة والمحاكمة والنقد:

كم زهيراً في الشعر الجاهلي؟ وكم حساناً في الشعر الإسلامي في العصر النبوي؟ وكم جريراً في العصر الأموي؟ وكم بحترياً ومتنبياً في العصر العباسي؟ وكم شوقياً في الشعر العربي الحديث؟ وكم نزاراً في الشعر العربي المعاصر؟ وكم إقبالاً لدى المسلمين في الهند وباكستان؟ وكم نجيب فاضل لدى الأتراك؟ وكم أميرياً في الشعر الإسلامي المعاصر؟

لماذا جعل ابن سلام الجمحي الشعراء القدماء في طبقات؟ وعقد الأمدي موازنته بين الطائيين أبي تمام والبحتري؟ وتوسط القاضي الجرجاني بين المتنبّي وخصومه؟ وشنت مدرسة الديوان الحديثة هجوماً عنيفاً على أحمد شوقي وحافظ إبراهيم؟ وما دلالة بقاء أشعارهم في دائرة الضوء؟

الجواب عن هذه الأسئلة يجعلنا نتواضع في مثل هذا الطلب الذي

يطرحه د. نبيل وآخرون ممن دأبوا على وصف الشعر الإسلامي بالضعف عامة، وتكرار توجيه التهم إليه بالمباشرة والسطحية والتكرار، وتلمس الأمثلة لذلك - وهي كثيرة - من دون مراعاة الواقع الذي يتوزع الناس أينما كانوا من القاع إلى القمة.

إن الإبداع الأدبي مصبوغ بصيغة الشخصية لا يمكن إنتاج نسخ مكررة منه في الجودة؛ بغض النظر عن



تجيب فاضل

إسلاميته أو عدم إسلاميته، وحدائته أو قدامته. ومثلما نجد أفراداً من الأدباء أو الشعراء استطلت أعناقهم نحو القمة نجد عند هؤلاء أنفسهم تفاوتاً في نصوصهم الإبداعية صعوداً وهبوطاً ومن دون استثناء.

ومن هنا أقول: إن جعل كتاب منهج الفن الإسلامي دليلاً لإنتاج أدب إسلامي أو شعر إسلامي يختبر المبدعون على أساسه، وتقاس

إبداعاتهم بمقياسه؛ ليس واقعياً؛ لأن معنى ذلك وجوب توفير نسخة من هذا الكتاب مع دليل الاستفادة منه مثل كتاب المعلم ودليله في المدارس؛ لكل من يريد الإبداع، حتى يترسم في إبداعه خطوات المنهج الذي فيه. هل هذا ممكن؟ هل هذا معقول؟

وقبل الانتقال إلى الجزء التطبيقي من المقال، والنظر في النماذج التي استشهد بها د. نبيل من مجلة الأدب الإسلامي - أسجل عدة أساسيات في الجانب التنظيري المتأرجح بين الواقع والخيال، فأقول:

تقر جميعاً بوجود إبداع ضعيف في الأدب الإسلامي عامة والشعر خاصة، على مستويات متباينة.

إن الجانب الإيجابي في صياغة د. نبيل رأيه، هو تجنبه التعميم في الحكم مثل قوله: (وهو إشارة إلى خواء ثقافة بعض المبدعين الإسلاميين الفنية..) فكلمة (بعض) تتيح لرأيه المصادقية، ليس فقط في المبدعين الإسلاميين، بل في المبدعين عامة، لأن المهبة الأدبية الفنية قدر مشترك بين الناس، لا يؤثر فيها ثقافة المبدع وتوجهه العقدي والخلقي سلباً أو إيجاباً، ولعل هذا هو ما قصده الجرجاني عندما قال: (إن الدين بمعزل عن الشعر).

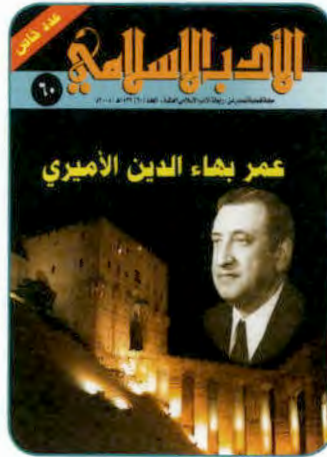
أكد د. نبيل في مقاله وجود شعر إسلامي حقق المواصفات الفنية حسب المنهج الذي يحتكم إليه في

إن د.نبيل وضع حكما مسبقا أمامه هو (ضعف الشعر الإسلامي فنيا)، وراح يبحث له عن شواهد إثبات في مجلة الأدب الإسلامي فوجد ما يثبت هذا الحكم ويؤيده. ولو فعل العكس، فوضع أمامه حكما هو أن الشعر الإسلامي الحديث حقق مواصفات فنية عالية وتمثل المنهج الذي وضعه محمد قطب في كتابه، وبحث له عن شواهد في مجلة الأدب الإسلامي لوجد أيضا ما يريد من دون أي عناء، وشفيعه في ذلك صاحب المنهج نفسه الذي مثل لمنهجه من شعر عمر بهاء الدين الأميري. والشواهد غير منحصرة في مجلة الأدب الإسلامي، فدواوين الشعراء هي التي تمثلهم.

عمل د.نبيل في اختيار النماذج الضعيفة:

أصاب د.نبيل في التوجه إلى مجلة الأدب الإسلامي لاختيار نماذجه، والحكم عليها، ذلك أن المجلة صارت شعارا لهذا الاتجاه من الأدب، وهي بذلك مظنة تحقيق هذه الفكرة، ونجاحها أو إخفاقها يعني الكثير. والمجلة كما أنها لا تدعي تحقيق المنهج الفني تحقيقاً أمثل، فهي لا تقر بتاتا بما يذهب إليه د.نبيل وغيره في وصف الأدب الإسلامي عامة، والشعر الإسلامي خاصة بالضعف بهذه الصورة التي تعطي للقارئ انطبعا بالإخفاق الكامل، أو الفشل الكبير.

بيتين لشاعرة لم تعرف بالشعر أصلا، وقصيدة لابن الرومي (فحسبا) كاف لوضع منهج للشعر الإسلامي يحاسب به السابقون، ويطالب به اللاحقون؟ وأقف مع شعر الأميري رحمه الله، فالأميري لم يحقق السمو الفني في شعره بناء على ما ورد من رؤية فنية في كتاب المنهج، وشعره كله ليس من مستوى فني واحد في السمو، من نوع النصين اللذين استشهد بهما



محمد قطب (ذرة، وضراعة تائر)، ولا من نوع قصيدة (أب) التي قال عنها العقاد: إنها تستحق أن تكون القصيدة الأولى في ديوان الإنسانية. ولو أن د.نبيل تصفع دواوين الأميري، وانتقى من أبيات قصائدها كما فعل في مجلة الأدب الإسلامي لخرج بالنتيجة نفسها، ولكان الأميري محكوما عليه بالإخفاق في تمثيل منهج الفن الإسلامي.

كتاب منهج الفن الإسلامي، وذلك من خلال العبارات المتحفظة التي وصف بها الضعف مثل: (إن كثيرا من شعراء الأدب الإسلامي..)، (إن تفوق كثير من شعراء الأدب الإسلامي..)، و(إن فريقا كبيرا من شعراء الأدب الإسلامي..). فهذا التحفظ دليل إقرار بوجود فريق آخر يقابل الأول حقق المنهج المطلوب في الشعر الإسلامي.

إن مطابقة جميع شعراء الأدب الإسلامي، أو غالبيتهم وهم يمثلون (اتجاها عريضا مختلفي المنازع والأهواء) بشعر إسلامي يرتفع إلى قمة متساوية في المواصفات الفنية بمقياس صاحب منهج الفن الإسلامي مطلب خيالي، لا يتحقق في واقع الشعر الإسلامي خاصة، ولا في واقع الشعر عامة. والدليل لما أقول النماذج التطبيقية التي استشهد بها محمد قطب في آخر كتابه، وهم:

عمر بهاء الدين الأميري من الشعر الإسلامي العربي الحديث، ومحمد إقبال من الشعر الإسلامي الأردني الحديث، وطاغور من الشعر الإنساني الهندي الحديث، وبيتان لسكينة بنت الحسين من الشعر الإسلامي القديم لم يجزم المؤلف في الهامش نسبتهما إليها، وقصيدة الأسفار لابن الرومي، وهنا نقطة في غاية الأهمية! هل الاستشهاد للشعر الإسلامي القديم



وما وقع فيه د. نبيل من الخطأ المنهجي في النقد وقع فيه غيره قبله من الذين كتبوا في الموضوع أو تحدثوا من داخل دائرة الأدب الإسلامي وخارجها، فلننظر كيف اختار د. نبيل نماذجها؟

وهذا يعني أنه نظر في ٢٨ عددا من المجلة، نستبعد منها العدد ٢٠ الخاص بالقصة القصيرة، والعدد ٤٠ الخاص بأدب الطفل، فالأول يخلو من الشعر، والثاني ليس موضوع البحث، فيبقى لدينا ٣٦ عددا.

عمد إلى اختيار ١٠ قصائد من ١٤٢ قصيدة هي مجموع قصائد الأعداد التسعة، ثم عمد مرة أخرى إلى انتقاء ٥١ بيتا من ٢٠٨ أبيات هي مجموع أبيات القصائد العشرة.

والجدول الآتي يرسم الخريطة التي انتهجها د. نبيل في اختيار النماذج التي تدل على ضعف الشعر الإسلامي:

فقد استعرض مجلة الأدب الإسلامي من العدد ١٥ إلى ٥٢، ٣٦ عددا لاختيار قصائد الشواهد، ثم بعد ذلك عمد إلى ٩ أعداد من ٣٦ عددا لاختيار قصائد الشواهد، ثم

العدد المختار	عدد القصائد	عدد أبيات القصائد	عدد القصائد	عدد أبيات القصائد	عدد أبيات القصائد	عدد أبيات القصائد
١٥	٧	٩٦	٣	١	٤ من ١٩	٤-١
١٩	٦١	١٣٣٩	١٦	١	٤ من ١٥	٤-١
٢٠	٧	١٣١	-	١	٣ من ١٠	٤، ٣، ١
٢٥	١٠	٢٧٩	-	١	٥ من ١٩	١٨، ١٧، ١٢، ١١، ١
٢٨	١٦	٣٩٥	١	١	٦ من ٢٠	١٧، ١٨، ٤-١
٤١	١٢	١٥١	٢	١	٧ من ٣٢	٣١، ٢٧، ١٣، ١٢، ٩، ٤، ١
٤٨	٩	١١٧	٣	١	٦ من ١٣	٦، ١١، ١٣، ٣-١
٤٩	١٠	١٦٢	-	١	٨ من ٣١	٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٦، ٢٣، ١٦، ١٥، ١
٥٢	١١	١٢٧	٤	٣	٤ من ٢١ (١) ٤ من ٢٨ (٢)	٤-١ ٤-١
٩	١٤٣	٢٧٩٧	٢٨	١٠	٢٠٨/٥١	المجموع

فإذا وقفنا عند المجموع النهائي من الأرقام فقط؛ وجدنا أنه انتقى ٥١ بيتا من أصل ٢٧٩٧ بيتا في الأعداد التسعة. وأقول: انتقى؛ لأن طريقته تؤكد ذلك، فهو مثلا قد استل ٧ أبيات من قصيدة (وكيف يغرد السرب) في العدد ٤١، المؤلف من ٣٢ بيتا، وهي الأبيات: (١، ٤، ٩، ١٢، ١٣، ٢٧، ٣١)، فهل يمكن الحكم

على القصيدة موضع الشاهد من خلال هذه الأبيات بهذه الطريقة، بله أن نحكم على الشاعر نفسه الذي له عدة دواوين؟

من هنا جاء تقديم صورة قائمة في المقال، يستحوذ على شعور القارئ العادي خالي الذهن، ويوحى له بتهاافت الشعر الإسلامي، وإخفاق شعرائه في الجري في مضماره، بله

ما يلحق مجلة الأدب الإسلامي من أذى عندما يعرف القارئ أن الكاتب نظر في ٣٦ عددا، وهو ليس قليلا، إذ يعادل تقريبا نصف مجموع الأعداد الصادرة من المجلة حتى الآن، فخرج بهذه النتيجة من البحث.

فهل هذا المنهج صحيح في الحكم على (شعراء اتجاه عريض من اتجاهات الأدب مختلفي المنازع

والأهواء في اختيار المؤدى الفني لطرائق أساليبهم الأدبية) للوصول إلى الحكم بالقول: (لكن العجز والقصور عن تحقيق أدنى... معايير الجمال في هذا المؤدى أمر يحتاج إلى بيان واستقصاء)؟

نعم؛ إن الأبيات التي انتقاها د. نبيل متفاوتة في الضعف، وبعضها ليست ضعيفة بالدرجة التي يصورها، وإن مجلة الأدب الإسلامي فيها أبيات أكثر ضعفا منها إذا بحثنا بالطريقة نفسها، ولكن النتيجة خاطئة لخطأ المنهج النقدي الذي سلكه الناقد في الحكم العام الذي نقله من الأبيات إلى القصائد، ومن القصائد إلى الشعراء، ومن الشعراء إلى المجلة، ومن المجلة إلى هذا العدد الكثير من الشعراء الذين يمثلون اتجاهها أدبيا عريضا.

منهج المجلة في النشر:

وهنا أشير إلى منهج المجلة نفسها في النشر؛ فإنه يجب أن يكون معلوما لدى كل باحث، أو ناقد أن مجلة الأدب الإسلامي - وأظن أن غيرها من المجلات مثلاً - ليست مجلة النخبة المغلقة إلا على نفر من الأدباء والنقاد الذين يتسمون القمة، وأن كل ما ينشر فيها يجب أن يكون نموذجا يضرب به المثل في السمو الفني في الإبداع، والجودة والإتقان في أدوات الدراسة النقدية.

فالمجلة تهدف إلى التواصل مع شريحة كبيرة من القراء، وهي تنشر أحيانا كثيرة نصوصا مقبولة في حدها الأدنى، وتتيح المجال للرأي فيما ينشر لترفع من مستوى المبدعين المشاركين، وتشجعهم في السير نحو الهدف المنشود. وقد دأبت على نشر نصوص كثيرة في باب الأقلام الواعدة.



نتيجة مغايرة مع منهج مختلف:

وبعد كل هذا فيان؛ دراسة القصائد التي تم اختيار أبيات منها تعطي نتيجة مغايرة في حال تناولها مع النص الكامل للقصيدة، ينظر فيه الناقد إلى جسم النص وروحه، وذات الشخص المبدع وملابس إبداعه، بما في ذلك ما صار يسمى عتبة النص الذي هو العنوان، وغير ذلك من العناصر العديدة في تناول الشكل والمضمون والعلاقة بينهما،

وخير مثال لذلك القصيدة التي أشرت إليها بعنوان (وكيف يغرد السرب) في رثاء الشاعر العراقي وليد الأعظمي، الذي يعد ظاهرة شعرية في الظروف التي عاشها، والأهداف التي سعى لها، والموضوعات التي تناولها، والأسلوب الذي انتهجه في شعره، كل هذه من العناصر التي أسهمت في بناء القصيدة التي غرد بها الشاعر الفلسطيني عبد الرزاق أبو مصطفى في رثاء وليد الأعظمي.

إنني لا أصادر حق الشاعر والناقد د. نبيل قصاب باشي في التعبير عن وجهة نظره، ولكني أدعوه إلى ممارسة نقد منهجي متكامل في مثل هذا الموضوع الممتد بامتداد مساحة العالم الإسلامي، وهو يعلم أن النقد المتوازن يتناول الإيجابيات والسلبيات في النص كله حتى يصدق الحكم عليه. ولا يصدق الحكم على مبدعه إلا بتناول مساحة واسعة من إبداعاته تكفي للتعبير عنه.

والباب مفتوح للمزيد من الدراسات والآراء له ولغيره، وخصوصا أن الأعداد التي جعلها د. نبيل تحت المجهر تضم قصيدتين له هو؛ إحداهما بعنوان: صليل الحجارة في العدد ١٥، وهي من شعر التفعيلة. والأخرى بعنوان: يا دارة السعد في العدد ١٩ الخاص بالشعر، وهي من الشعر العمودي. ■